

نصوص فلسفية في قيمة التاريخ ومنهجه (*)

١ - ديكرت (١٥٩٦م - ١٦٥٠م)

من « مقال في المنهج » (التسم الأول) :

« أحسبني أنفقت وقتاً كافياً في دراسة اللغات ، بل وفي قراءات الكتب القديمة وما فيها من تواريخ وأساطير . لأن الحديث مع أبناء القرون الخوالي أشبه بالأسفار . فمن الخير أن نعرف شيئاً عن أخلاق مختلف الشعوب ، حتى نكون أسد رأياً في الحكم على الشعب الذي ننتهي إليه ، ولئلا نظن أن ما يخالف أحوالنا مدعاة للاستهزاء ومناف للعقل ، كدأب أولئك الذين لم يروا شيئاً . لكن من ينفق وقتاً مفرطاً في الأسفار ينته بأن يصبح غريباً في وطنه ؛ ومن يباليغ في استقصاء أمور العصور الماضية ، يظل عادة شديد الجهل بأمور عصره . فضلاً عما تخيله الأساطير من أحداث كثيرة غير ممكنة وكأنها ممكنة ، فان أصدق التواريخ - وإن لم يغير أو يزد في قيمة الأشياء لتصبح أحق بالقراءة ، - فإنه على الأقل يغفل دائماً تقريباً الأمور الأدنى والأقل شأناً ، فلا يبدو سائرها كما كان في الواقع ؛ والذين يقتدون في سيرهم بالأمثلة التي استخلصوها منها معرضون للوقوع في التهاويل الجنونية المألوفة لدى فرسان الأقاويص ، ولتخيل أفعال تفوق طاقتهم ».

٢ - پول فالري (١٨٧١ - ١٩٤٥)

من خطبة له بعنوان « خطبة في التاريخ » ألقاها في حفلة توزيع الجوائز الرسمية بليسيه جانسون دي ساين في ١٣ يوليو سنة ١٩٣٢ (نشرت في مجموعة « منوعات Variétés » ج ٤ ص ١٢٧ - ص ١٤٢) :

إن المؤرخين ورجال التاريخ ، أهل الدراسة وأهل الأفعال يتأثرون - على نحو شعوري حيناً ، لاشعوري حيناً آخر - ببعض الوقائع أو الملامح دون

(*) جميع التعليقات الواردة في الهوامش من وضع المترجم .

بعض ، ويغفلون عن أخرى لا تلتئم أو تنقض مذاهبهم ؛ ولا يبدو أن تمت تأثيراً ما لدرجة ثقافة هذه العقول ، أو لرسوخ علمهم أو سعته ، بل ولا لإخلاصهم أو عمقهم ، على ما يمكن أن يسمى « قلرة تباين الأهواء في التاريخ » .

فسواء استمعنا إلى زيد أو عمرو (١) من الناس ، أو إلى جوزف (٢) دى ميستر النبيل الطاهر الرقيق القسوة ، أو إلى ميشليه (٣) العظيم الحار المشبوب الإحساس ، أو تين (٤) أو توكفيل (٥) أو مسيو أولار أو مسيو ماتيه — فبقدر عدد هؤلاء الأشخاص ، يكون عدد معتقداتهم اليقينية ؛ وبقدر عدد نظراتهم يكون عدد نصوص كتاباتهم . فكل مؤرخ لعصر مليء بالأحداث يبرز لنا رقبة مقطوعة هي موضوع تفضيله .

وأي شيء أعجب من استمرار هذه الخلافات ، على الرغم من كمية وكيفية الجهود المبذول في استقراء طائفة معينة واحدة من آثار الماضي ، ومن أن يتهم بعضهم بعضاً ، وتزداد النفوس صلابة وخلافاً وبعداً بعضها من بعض ، عن طريق هذا المجهود نفسه الذي كان يجب أن يقودهم إلى حكم واحد ؟

(١) في النص : « مدام ديجا أو مدام لوبا » والأولى هي أم النحات المشهور ديجا والثانية أرملة لوبا Le Bas الذي كان من أعضاء الميثاق الوطني ، وهي الجمعية الثورية التي خلفت الجمعية التشريعية إبان الثورة الفرنسية في ١٧٩٢/٩/٢٠ وأعلنت الجمهورية وحكمت على لويس السادس عشر بالإعدام الخ . وقد أشار إلى زيارة الأولى للثانية في استهلال هذه الخطبة .

(٢) فيلسوف ديني ومن أنصار البابوية في فرنسا ؛ ولد في شامبرى . ومن أشهر مؤلفاته : « البابا » ، « أماسي سان بطرسبورج » . ودافع في كليهما عن مبدأ السلطة المطلقة في الدين والسياسة فكان من أنصار الرجعية والاستبداد (سنة ١٧٥٣ — سنة ١٨٢١) .

(٣) جول ميشليه (سنة ١٧٩٨ — سنة ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي شهير ، اشتهر بالدعوة إلى الحرية في الفكر والسياسة والدين — على النقيض تماماً من جوزف ديمستر — مما سبب منعه من التدريس في الكوليج دى فرانس . وأشهر ما كتب : « تاريخ الثورة الفرنسية » ، « تاريخ فرنسا » ؛ ويمتاز بجمال الأسلوب وحرارة العاطفة .

(٤) هبوليت تين (سنة ١٨٢٨ — سنة ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ وناقد أدبي فرنسي ؛ تأثر مناهج العلوم الطبيعية في دراسة الآثار التاريخية والأدبية والفنية . أشهر مؤلفاته : « فلسفة الفن » ، « تاريخ الأدب الإنجليزي » ، « أصول فرنسا المعاصرة » .

(٥) ألكسيس دى توكفيل (سنة ١٨٠٥ — ١٨٥٩) سياسي ومؤرخ فرنسي . أشهر مؤلفاته : « الديمقراطية في أمريكا » ، « العهد القديم والثورة » ؛ وكان نبيل الأخلاق ، واسع الأفكار السياسية ، فأجمع الكل على تقديره .

وعبثاً ينمو المجهود وتنوع المناهج ويتسع ميدان الدراسة أو يضيق ،
وتدرس الأمور بنظرة عالية جداً أو ينفذ المرء إلى نسيج العصر الدقيق ،
ويستقصى الوثائق المحفوظة عند الأشخاص والأوراق الباقية عند الأسر والشئون
الخاصة وصحف العصر والقرارات المحلية - فهذه التوسعات المتنوعة لا تتلاقى أبداً ،
ولا تنهى عند فكرة واحدة تفضى إليها . بل ينتهى كل منها إلى طبيعة مؤلفها
وأخلاقهم ، ولا ينتج عنها أبداً غير نتيجة بينة واحدة وهي : استحالة فصل
من يشاهد عن الشيء الذى يشاهده ، والتاريخ عن المؤرخ .

ومع ذلك فثمت نقطاً يترافق عليها الجميع . ففى كل كتاب تاريخ قضايا
يتفق عليها الممثلون والشهود والمؤرخون والأحزاب . وهى لفتات موفقة ، وأمور
عرضية حقاً ؛ ومجموع هذه الأمور العرضية ، وهذه الشواذ الحديدية بالملاحظة ،
هو الذى يؤلف القسم المؤكد من معرفة الماضى . وهذه الأعراض ذات الاتفاق ،
وهذا التلاقى فى الموافقات - يحدد « الوقائع التاريخية » ، ولكنه لا يحددها
تحديداً تاماً .

فالناس جميعاً متفقون على أن لويس الرابع عشر توفى فى سنة ١٧١٥ .
لكن وقع فى سنة ١٧١٥ ما لانهاية له من الأمور الأخرى الملحوظة يحتاج
تسجيلها كتابةً إلى ما لانهاية له من الكلمات والكتب بل والمكتبات لحفظها .
فلا بد إذن من « الاختيار » ، أعنى من الاتفاق ليس فقط على « وجود »
الواقعة ، بل وأيضاً على « أهميتها » . وهذا الاتفاق رئيسى جداً . والاتفاق على
الوجود معناه أن الناس لا يمكن أن « يعتقدوا » إلا ما يبدو لهم أقل حظاً من
الإنسانية وأنهم يعدون أمر اتفاقهم أضعف من أن يقدر على استبعاد شخصياتهم
وغرائزهم ومصالحهم ونظراتهم الفردية ، - وهى مصادر الخطأ وقوى التزييف .
لكن لما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شيء ، ولابد من التخلص من خضم
الوقائع اللامتناهى بواسطة حكم على أهميتها النسبية فيما بعد ، فإن تقرير الأهمية
يُدخل من جديد فى العمل التاريخى ما حاولنا تجنبه واستبعاده ، ولا مفر من ذلك .
والأهمية هنا ذاتية خالصة ، كما يقول زملاؤكم فى قسم الفلسفة : إذ الأهمية
موكول إلينا تقديرها ، مثلها مثل قيمة الشهادات (الباقية لدينا) . وللمرء الحق

في أن يظن أن اكتشاف خواص الكينا « أهم » من أية معاهدة عقدت حوالي ذلك العهد ؛ والواقع أنه في سنة ١٩٣٢ يمكن أن تذهب نتائج هذه الأداة الدبلوماسية (المعاهدة) هباء وتفتى في خضم الأحداث ، بينما الحمى يمكن تعرفها دائماً والمناطق ذوات الملاريا يكثر وفود الناس عليها واستغلالها ، وأن الكينا لعله لا غنى عنها من أجل احتلال الأرض كلها والبحث عن الثروة فيها ، وهذا الأمر هو الظاهرة السائدة ، « في نظري » ، في هذا القرن .

وهكذا ترون أني أنا أيضاً أشارك في تقرير الأهمية حسبما أراه .

على أن التاريخ يقتضى ويتضمن كثيراً من الأهواء . فمثلاً نجد من بين القواعد التي يعمل بمقتضاها قاعدة يعتقد بسهولة أنها دالة بنفسها ، ويمكن استخدامها بغير أدنى تحوط ، حتى إنه قد بدا للناس أني أتيت أمراً منكراً حينما أردت منذ مدة أن أبحث عن صياغتها الدقيقة .

فهل أجروا على أن أحدثكم عن « علم التواريخ » Chronologie ، وكان في الماضي أقسى مواد الامتحان ؟ وهل أجروا على إقلاق فكرتكم الناشئة عن العلية ، وتذكيركم بالمغالطة القديمة : « بعقبه إذن بسببه » post hoc , ergo propter hoc ، وتلعب دوراً خطيراً في التاريخ ؟ وهل أقول لكم إن توالي السنين له قيمة محدودة عظيمة هي نفس القيمة التي للترتيب الأبجدي ، وإن توالي الأحداث أو وقوعها معاً لا معنى له إلا في كل حالة على حدة ، وفي النطاق الذي فيه يمكن هذه الأحداث ، « في نظر شخص ما » ، أن يؤثر بعضها في بعض ؟ وأخشى أن أثير الدهشة والانزعاج إذا أومأت أمامكم إلى أن رجلاً من نوع « الرجل الصغير الكبير » (٢) Micromegas لو أنه تجول في الزمان

(١) مغالطة منطقية فيها يفترض الإنسان أن حدثاً معلول لآخر ، لا لسبب إلا لأنه أتى بعقبه . أي بعده . ويقول بيكن Bacon إن هذه المغالطة هي الأصل في معظم الحرفات المتصلة بالتنجيم والمفالة .

(٢) ميكروميغاس : اسم بطل أقصوصة فلسفية لفرلير ، وضعها سخرية من الأديب فونتنل (سنة ١٦٥٧ - سنة ١٧٥٧) الذي ألف كتاباً عنوانه « تعدد العوالم » مزج فيه بين الحقائق العلمية والمهازل الأدبية البارعة ؛ وجعل فونتنل هذا « الرجل الصغير الكبير » ، وتهكم منه تهكماً لاذعاً .

حيثما اتفق ، وانتقل فجأة من الإسكندرية القديمة في أزهى عصورها إلى قرية في أفريقية أو في فرنسا الحالية ، نخليل إليه قطعاً أن عاصمة البطالمة الزاهرة (الإسكندرية) « أحدث » عهداً بمقدار ثلاثة أو أربعة آلاف سنة من تلك المجموعة من الدور والأكوخ التي يسكنها معاصروننا .

وهذه الموافقات Conventions لا مفر منها . ولهذا لا أنقد إلا إهمال أولئك الذين لا يبرزونها للعقول بوضوح ووعي . ويؤسفني ألا يعمل في التاريخ ما عملته العلوم الدقيقة في نفسها حينما أعادت النظر في أساسها وبحثت في بديهياتها بكل عناية وأحصت مصادراتها (ومبادئها) .

ذلك أن « التاريخ » لعله في الأصل ربة إلهام ، وأن القوم يفضلون أن يكون كذلك . هنالك لن يكون لدى ما أقوله . . . فإني أجد ربوات الإلهام .

كما أن « الماضي » أمر عقلي خالص . فما هو إلا صور ومعتقدات . لاحظوا أننا نستخدم نوعاً من المنهج المتناقض لنكوّن مختلف الأشكال عن مختلف العصور : فمن ناحية ، نحن في حاجة إلى الحرية في ملكة تخيل حيوات الآخرين والشعور بها ؛ ومن ناحية أخرى ، لا بد من تضيق هذه الحرية من أجل أن نحسب للوثائق حسابها ، وأن نضطر أنفسنا إلى ترتيب وتنظيم « ما كان » بواسطة قوانا وصور تفكيرنا وانتباهنا ، وهذه أمور « في جوهرها حاضرة » . لاحظوا هذا على أنفسكم : في كل مرة يتملككم فيها التاريخ وتفكرون تاريخياً ويلد لكم أن تحبوا المغامرات الإنسانية في عصر من العصور الغابرة ، يسند اهتمامكم هذا شعور بأن الأشياء كان يمكن أن تكون غير ما كانت عليه بالفعل وأن تتخذ مجرى آخر . وفي كل لحظة تتخيلون « لحظة – تالية » أخرى غير تلك التي تلت فعلاً : ففي كل حاضر خيالي تضعون أنفسكم فيه ، تتصورون مستقبلاً آخر غير الذي تحقق .

« لو انتصر روبيبير ؟ – لو وصل جروشي (١) في الوقت المناسب على

(١) Grouchy : امانويل دي جروشي : ماريشال فرنسي . حارب في فنديه ، وكان على رأس الحملة في إيرلنده ، وبرز في عهد امبراطورية نابليون الأول . وفي عشية معركة ووترلو كلف بمطاردة البروسيين بعد هزيمتهم في ليني ، فتركهم يفرون ويلحقوا بالإنجليز وبقى هو بعيداً عن ميدان المعركة التي قررت مصير نابليون . ولد سنة ١٧٦٦ ، وتوفي سنة ١٨٤٧ .

أرض ووترلو؟ - لو كان عند نابليون بحرية لويس السادس عشر وقائد بحرى مثل سوفرن...»^(١) لو... دائماً لو.

وهذا الحرف العاطف الصغير « لو » مليء بالمعاني . فلعل فيه يرقد سر الرابطة الباطنة بين حياتنا وبين التاريخ . إنه يبيث في دراسة الماضي قلق الانتظار ودوافعه المحركة التي تحدد لنا الحاضر . ويضئ على التاريخ قوى القصص والحكايات . ويشركنا في هذا التوقف أمام الأمور غير اليقينية ، وهو ما يؤلف الإحساس بالحيات الكبرى : والإحساس بمشاعر الأمم خلال المعارك التي يتقرر فيها مصيرها ، الإحساس الملازم للطامحين في الساعة التي يرون فيها أن الساعة التالية ستكون ساعة التاج أو ساعة المنقصة ، الإحساس الذي يشعر به الفنان وهو يشرع في إزالة الأغشية عن مرمر تمثاله أو يأمر بإزالة العقود والدعائم التي لاتزال تسند البناء... ولو جردنا من التاريخ عنصر الزمن الحى . لوجدنا أن مادته نفسها ، أعنى التاريخ... الخالص : ذلك المؤلف من وقائع فحسب ، من وقائع لا جدال فيها من ذلك النوع الذى تحدثت عنه - وجدنا هذه المادة لا معنى لها - ، لأن الوقائع ليس لها في نفسها معنى . يقال لكم أحياناً : « هذه واقعة » ، « استسلموا للوقائع » . فهذا معناه : « آمنوا » . لأن الإنسان لم يتدخل ها هنا وإنما الأشياء نفسها هي التي تتكلم . « هذه واقعة » .

أجل . لكن ماذا نعمل بـ « الواقعة » ؟ لا شيء أشبه من الواقعة بوحى فوثيا^(٢) ، أو بهذه الأحلام الملكية التي فسرها أمثال يوسف ودانيال - في

(١) Suffren : بيار أندريه : ملاح فرنسى (سنة ١٧٢٦ - سنة ١٧٨٨) حارب الإنجليز ببسالة في الهند منذ أن دخل البحرية الملكية سنة ١٧٤٣ ، ولكنه وقع بين أيديهم في معركة الجزيرة الجميلة Belle-Isle سنة ١٧٤٨ ، ثم دخل في طريقة فرسان مالطة سنة ١٧٤٩ ، واشترك في الاستيلاء على ماهون Mahon سنة ١٧٥٦ . وحارب مع حيدرعلی في الهند ضد الإنجليز ، ووكّل إليه أمر قيادة خمس سفن سنة ١٧٨١ ، فحطم أسطول جونستون . ثم عين رئيساً لأسطول الهند سنة ١٧٨٢ وتحالف مع حيدرعلی وحارب الأدميرال الإنجليزى هيوز خلال سبعة أشهر في أربع معارك واستولى على نيجا باتام وترنكال وظل متفوقاً حتى صلح فرساي سنة ١٧٨٣ . وتوفى سنة ١٧٨٨ خلال مبارزة .

(٢) فوثيا Pythia : كاهنة أبولون في دلف التي كانت تجلس على مقعد ذى ثلاث أرجل فوق شق في صخرة ، وتتفوه - وهي في حال التجل - بعبارات متعثرة غامضة ، يتولى الكاهن تفسيرها على صورة أبيات منظومة .

الكتاب المقدس - للملوك الفرعيين . فى التاريخ ، كما فى سائر المواد ، ما هو واقعى
وضعى هو غامض يحتمل ما لانهاية له من التأويلات .

ولهذا فان أمثال دى ميستر وأمثال ميشليه ممكنون على السواء ؛ ومن هنا
فانهم حينما يفكرون فى الماضى لعلمهم أن يتصوروا أنفسهم أشباه الوحي والكهنة
والأنبياء ، فيتشككون بأشكالهم ويستعبرون سمو لغاتهم ؛ وفى نفس الوقت
يضيفون على « ما كان » كل العمق الحى الذى لا يثبت حقاً إلا للمستقبل .

وعلى هذا النحو يتشابه فى نفوسنا : رؤية (١) الماضى والتنبؤ بالمستقبل ،
واقتناص الماضى وتوقع المستقبل ، ولا نملك إلا الترجيح بين الصور ، ويبدو
الحاضر السرمدى شبيهاً بالاصطفاق بين فرضين متماثلين : أحدهما يفترض
الماضى ، والآخر يقترح المستقبل .

وأنتم أيها الشباب الأغراء المائلون أمامى . إنكم تجعلونى أفكر فى أزمنة
لن أراها ، وفى أخرى لن أراها عوض . أراكم وأرى نفسى حينما كنت فى سنكم ،
فتغريبنى الرغبة فى التنبؤ بما سيكون .

لقد أطلت عليكم كثيراً فى الحديث عن التاريخ ، وكنت على وشك أن
أغفل عن ذكر الأمر الجوهرى ، ألا وهو : إن أفضل منهج لتكوين فكرة
عن استعمال التاريخ وقيمه ، - وخير طريقة لتعلم كيفية قراءته والانتفاع به - ،
هو أن يتخذ المرء من تجربته الخاصة نموذجاً لمعرفة الحوادث التى وقعت ، وأن
يستخلص من الحاضر نموذج حب استطلاع له للماضى . فما رأيناه بأعيننا ،
وما عايناه بأنفسنا وما كنا عليه وما فعلناه ، - ذلكم هو الذى يجب أن يقدم لنا
برنامج المسائل ، المستخلص من حياتنا نحن ، والذى سنطلب من التاريخ بعد ذلك
تحقيقه ويجب عليه أن يحاول الإجابة عنه كلما سألناه عن الأزمنة التى لم نعشها .
« كيف يمكن الحياة فى عصر ما معين ؟ » تلك هى المسألة فى صميم الأمر .
فجميع التجريدات والأفكار التى تجدرنهما فى الكتب لا طائل تحتها ، إذا لم تعطوا
الوسيلة لاكتشافها ابتداء من الفرد .

(١) فى هذه الفقرة لجأ فالرى إلى ألوان من الجنس والسجع بين الكلمات لم يتيسر أداءه فى
العربية ، وذلك بين *prévoir revoir propos suppose, ressentir pressentir*

لكن حينما يتأمل المرء نفسه تاريخياً ، - على ضوء التاريخ - ، ينساق إلى مشكلة معينة ، على حلها يتوقف مباشرةً حكمنا على قيمة التاريخ . فان التاريخ إذا لم يكن مجرد تلهية للعقل ، فما ذلك إلا لأننا نأمل أن نستخلص منه دروساً . إذ نظن أننا نستطيع أن نستنتج من معرفة الماضي بعض ما يسمح لنا بالتنبؤ بالمستقبل .

فلنرجع دعوى التاريخ هذه إلى أنفسنا ؛ وإذا كنا قد لمسنا بضع عشرات من السنين ، فلنحاول أن نقارن ما كان بما كنا نستطيع توقعه ، نقارن الحادث بالمتوقع . كنت في سنة الخطابة عام سنة ١٨٨٧ . (وسنة الخطابة قد أصبحت فيما بعدُ السنة الأولى ^(١) . وهو تغيير كبير يمكن أن نستخلص منه تأملات لأحد لما) .

إني لأتساءل الآن ماذا كان يمكن التنبؤ به سنة ١٨٨٧ - أي منذ خمس وأربعين سنة - مما وقع فعلاً منذ ذلك العام ؟

لاحظوا أننا في خير الظروف للتجربة التاريخية . فلدينا كمية هائلة ، لعلها أكثر مما يجب ، من المعلومات : كتب ، صحف ، صور شمسية ، ذكريات شخصية ، شهود لا يزالون كثيرين . والتاريخ لا يبني عادة بهذا القدر الوفير من المواد .

إذن ، ماذا كان يمكن توقعه ؟ إني أكتفي بوضع المشكلة . وأشار فقط إلى بعض ملامح العهد الذي كنت فيه طالباً في صف الخطابة .

في ذلك العهد كان في الشوارع مقدار من الحيوانات لا يرى إلا في ميادين السباق ، ولم يكن ثم آلة واحدة . (لنلاحظها هنا أن بعض الباحثين المحصلين يرون أن استخدام الفرس في البحر لم يشع إلا في حوالي القرن الثالث عشر ، فأنقذ أوروبا من الحمل ، وهي طريقة كانت تقتضي وجود العبيد . وهذا التشبيه يصور لكم السيارة - الأوتوموبيل - على أنه « واقعة تاريخية ») .

(١) لاحظ أن السنة الأولى في نظام التعليم الفرنسي الثانوي هي السنة النهائية التي يحصل الطالب في نهايتها على البكالوريا (القسم الثاني بفرعيه : فلسفة ، وعلوم ورياضة) . وسنة الخطابة (أو فصل الخطابة ، أو صف الخطابة كما يقول أهل لبنان وسورية) كانت هي سنة البكالوريا . وسميت كذلك لأنها السنة التي كان يدرس فيها الطالب علم الخطابة .

في سنة ١٨٨٧ هذه كان الجو مخصصاً للطيور وحدها دون سواها . ولم تكن الكهرباء قد فقدت أسلاكها . والأجسام الصلبة كانت لا تزال صلبة ، والأجسام المعتمة كانت لا تزال معتمة . ونيوتن وجاليليو يحكمان في سلام ؛ وعلم الفيزياء هانيء وقواعده (١) مطلقة . والزمان يجري بأيامه الهادئة : والساعات كلها كانت سواسية أمام الكون (٢) . وتمتع المكان باللانهاية والتجانس لا يتأثر أبداً بشيء مما يجري في داخل أحضانه العظيمة . والمادة تحكمها قوانين حكيمة عادلة ، ولم يخطر ببالها أبداً أنها ستعدل منها شيئاً مهما يكن ضئيلاً ، — حتى فقدت في هذه الهوة من التجزئ (٣) ، فكرة القانون نفسها . . .

ولكن هذا كله لم يعد اليوم إلا حلماً ودخاناً . لقد تغير هذا كله كما تغيرت خريطة أوروبا ، وسطح الأرض السياسي ، وكما تغير مظهر الشوارع ، وزملائنا في الليسيه — أولئك الذين لا يزالون أحياء ، وكنت تركتهم إما حاصلين على البكالوريا أو على وشك الظفر بها وإذا بي أجدهم اليوم أعضاء في مجلس الشيوخ وقادة عسكريين وعمداء أو رؤساء ، أو أعضاء في المعهد الفرنسي .

لقد كان من الممكن التنبؤ بهذه التغيرات الأخيرة ؛ ولكن التغيرات الأخرى ؟ إن أعلم العلماء وأعمق الفلاسفة وأبرع السياسيين في سنة ١٨٨٧ — هل كان في وسعه أن يحلم — مجرد حلم — بما نراه اليوم بعد مضي خمس وأربعين سنة باثثة ؛ إنه ليس من الممكن مجرد تصور ما هي العمليات العقلية التي يبحثها في كل المادة التاريخية المتجمعة عن سنة ١٨٨٧ كان يمكنها أن تستنتج من معرفة الماضي — أياً كان رسوخ هذه المعرفة وإحاطتها — فكرة ، ولو تقريبية جداً ، عما عليه سنة ١٩٣٢ .

ولهذا فاني أتخاشى التنبؤ . إنني أشعر شعوراً عارماً — كما قلت في مناسبة

(١) هنا إشارة إلى نسب اللاتين في فيزياء بلانك وهيزنبرج والميكانيكا التوجية بما أدى إلى أزمة في نظرية الجبرية في الفيزياء (راجع كتابنا « اشبنجلر » ص ٢٢ — ص ٢٤ ؛ القاهرة ط ٢ سنة ١٩٤٥) .

(٢) هنا إشارة إلى ما فعلته نظرية النسبية عند اينشتين من القول بعدة أنواع من الأزمنة تختلف باختلاف الراصد .

(٣) هنا إشارة إلى تجزئ الذرة ، وإلى عدم وجود جبرية دقيقة في المستوى تحت الذري .

أخرى - بأننا « ندخل المستقبل ناكصين على أعقابنا ». وهذا عندى أهم درس يعلمنا التاريخ إياه وأشدّه يقيناً ، لأن التاريخ هو العلم بالأشياء التي لا تتكرر أبداً . فالأشياء التي يمكن تكرارها ، والتجارب التي يمكن إعادةّها ، والملاحظات التي يعلو بعضها بعضها ، كل أولئك من شأن علم الفزياء ، وإلى حد ما علم الأحياء . لكن لا تخالوا أن تأمل الماضي بما فيه من غابر لن يعود أمر لا غناء فيه . إنه يبين لنا خصوصاً إخفاق التنبؤات البالغة الدقة إخفاقاً متواصلاً ؛ وعلى العكس يكشف عن الفوائد الكبرى للإعداد العام المستمر الذي يسمح للإنسان بالعمل في وقت مبكر ضد المتوقع - دون أن يدعى خلق الأحداث أو تحديها ، لأنها دائماً مفاجآت ، أو تنطوي على نتائج تثير الدهشة والذهول . . .

٣ - شارل سينيوبوس (*)

- ١ -

التاريخ علم ما في ذلك ريب ، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة « علم » على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع واحد معين من الوقائع . فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في « مجتمع » خلال توالي الأزمنة في « الماضي » . ويدخل في عداد العلوم « الوصفية » ، وهي تختلف عن العلوم العامة اختلافاً بيناً . فهذه العلوم (الميكانيكا ، والفزياء ، والكيمياء ، وعلم الأحياء) تعمل لاكتشاف قوانين ، أعني متواليات ثابتة من الظواهر التي من « نوع واحد » ، ضاربة صفحاً عن الأحوال الواقعية الزمانية والمكانية ، لأن هدفها ليس تقرير الواقع ، بل التنبؤ بما سيكون في أحوال معلومة . والعلوم الوصفية تسعى لمعرفة « وقائع » réalités جزئية ، فتبحث كيف تتوزع : إما في المكان وحده (علم الكون ، علم الجغرافيا ، علم المعادن ، علم النبات ، علم الحيوان) ، أو في المكان وتوالي الأزمنة معاً ؛ وإلى هذا النوع الأخير

(*) هذا البحث قسم من رسالة طويلة بعث بها شارل سنيوبوس في صيف سنة ١٩٤١ إلى فردينان لوت ووجدتها زوج لوت بعد وفاته ضمن أوراقه وسلمتها إلى ر. فانتيه R. Fawtier فنشرها في « المجلة التاريخية » Revue Historique (السنة السابعة والسبعون ، ح ٢١٠ ، يوليو سبتمبر سنة ١٩٥٣) وتاريخ رسالة سنيوبوس ١٠ - ٢٩ يونيو سنة ١٩٤١ .

(الجيولوجيا ، علم العصور التاريخية العتيقة paléontologie) ينتسب التاريخ أيضاً . لكن له وضعاً نسيجاً وحده . فبينما جميع العلوم لا تعمل إلا في نوع واحد من الظواهر ، نجد أن التاريخ يجب عليه أن يدرس في آن واحد « نوعين » من الوقائع المختلفة كل الاختلاف : ١ - وقائع مادية تعرف بالحواس (أحوال مادية . وأفعال بني الإنسان) ٢ - ووقائع من طبيعة نفسانية (عواطف ، أفكار ، دوافع) لا يدركها إلا الشعور ، ولا سبيل إلى الإضراب عنها لأنها توحى للناس بسلوكهم وتقتاد أعمالهم الحقيقية .

ولما كانت الوقائع أموراً ماضية ، فانها لا يمكن أن تلاحظ بطريق مباشر ، ولا يمكن إذن أن تعرف إلا بطريق « غير مباشر » وذلك بدراسة الآثار التي حفظت لنا منها . كما في الجيولوجيا وعلم العصور القديمة . والوقائع في التاريخ على نوعين : الموضوعات المادية التي كانت على صلة بالناس ، والنقول traditions الشفوية أو المكتوبة التي مرت من خلال الوسيط النفساني للغة ، مضافة إليه ، في حال النص ، علامة مكتوبة من نوع نفساني . ف « البقايا » - كلغة الإقليم واسم المكان ، والعرف الجارى (الحقل المكشوف ، الدورة الزراعية الثلاثية) ، والطقوس الدينية - إذا عرضت كنوع من الوثائق فهي ليست إلا صورة من النقل الشفوي . صارت عادة منقولة بالطريق النفساني خلال الأجيال المتعاقبة .

فنهج العمل التاريخي وقد ارتد إلى عمليات غير مباشرة ، ناقصة سطحية جداً ، نحو إذن يعتوره النقص بالضرورة . ولكنه وحده القابل لأن يطبق على جميع الدراسات المتعلقة بظواهر المجتمعات الإنسانية ، لأن كمية الوقائع التي يمكن الإنسان أن يشاهدها مباشرة كمية ضئيلة جداً ، لأن الحاضر سرعان ما يستحيل ماضياً . والواقع أن جميع الأعمال التي تجرى على الوقائع الاجتماعية تتم على وثائق مكتوبة - حتى البحث الاجتماعي في التوتم والتابو ، وعلم السكان وعلم الإحصاء . ولهذا فإن الدراسات عن سائر أنواع النشاط تتخذ شيئاً فشيئاً صورة التاريخ (تاريخ اللغات ، والأديان ، والقانون ، والصناعة الفنية ، والعلوم ، والفنون) .

وكل عمل تاريخي يقتضى عملية سابقة : ألا وهي جمع مواد المعرفة ، أي الوثائق بالمعنى الواسع . وقد بدأ التاريخ - شأنه شأن العلوم الوصفية (علم الحيوان ،

والجيولوجيا) - بمجاميع شبيهة بمجاميع التاريخ الطبيعي . ويقوم بهذا العمل خصوصاً مختصون يديرون الحفائر ، ويحررون الفهارس والأبحاث ، وينشرون كتب المراجع ؛ ودورهم في هذا شبيه بدور علماء التاريخ الطبيعي الذين يهيئون مجاميع علم الحيوان أو علم النبات . وفيما عدا اكتشافات الأشياء من قبيل المصادفة والمساعي لدى من يملكون أوراق الأسرة أو المجاميع الخاصة ، نرى أن « علم الاكتشاف » في المنهج التاريخي 'heuristique' يقتصر في الواقع على استخدام كتب المراجع والأبحاث bibliographies

— ب —

وينقسم العمل في كل علم إلى نوعين من سلاسل العمليات هما : « مشاهدة » الوقائع الجزئية بعزلها عن المجموع الذي تنتسب إليه ، - ثم المقارنة بينها على نحو يسمح بفهم « العلاقات » القائمة بينها . والإنسان لا يستطيع أن يدرك بطريق مباشر إلا الوقائع التي على قياس حواسه : من موضوعات أو كائنات محسوسة ، أو علاقات مباشرة للتوالي أو علاقة العلة بالمعلول . وعلى الرغم من أنه لا يوجد حد واضح تمايز بين كلتا السلسلتين ؛ فالبحث في الجملة ، عن الواقع هو من شأن العلم التحصيلي *érudition* ، وينقسم غالباً بين نوعين من المختصين : ناشري الوثائق ، ومؤلفي الرسائل المفردة . أما البحث عن العلاقات فن شأن التاريخ الذي يتخذ صورة مؤلفات عامة .

ولما كان التاريخ يعمل في وقائع أصعب في الرصد وبوسائل أشد نقصاً من أي علم آخر ، وكان إلى جانب هذا عارياً من كل أداة للملاحظة ، مقصوراً على قوى العقل الإنساني وهو بطبعه مضطرب غامض متسرع ، فإن المنهج يقتضى مقاومة السير التلقائي والعمل في اتجاه معاكس لاتجاه الطبيعة ، وكل هذا بدقة وحذر .

والمسلك الذي تفرضه طبيعة مادة المعرفة في التاريخ هو البدء من الوثيقة ، وهي الأثر المادى الوحيد عن الماضى ؛ ثم الارتفاع في سلسلة العمليات النفسية : الكتابة ، واللغة ، والمعنى المجازى ، والمعنى الحقيقى ، وتمثيل الشيء في نفس المؤلف ، حتى نصل إلى الواقعة التي عرفها . وهذا المنهج يقتضى نوعين من العمليات : « التحليل » (ويسمى هكذا مجازاً) وهو فصل كل واقعة من الوقائع الجزئية المعروضة إجمالاً في الوثيقة عن غيرها - فصلاً في الذهن ، لا في الواقع

كما في الكيمياء ؛ و « النقد » وقوامه تقدير قيمة المعلومات الواردة ، أعنى معرفة ما إذا كان بينها وبين الحقيقة الواقعية ذلك الاتفاق الذي نسميه « حقيقة » (طبيعتها من ميدان علم ما بعد الطبيعة) . والأمر الذي يجعل النقد ضرورياً هو أنه قد لوحظ بثلاثة مناهج مختلفة أن عدم التوافق بين العقل والإنسان والحقيقة الواقعية - وبعبارة أخرى « الخطأ » - شائع جداً . واكتشاف هذه الظاهرة ثبت يقيناً : (١) في التاريخ بما شوهد من تناقض لا سبيل إلى دفعه بين وثيقتين ؛ (٢) وفي العمل القضائي بالتناقض بين شهود واقعة واحدة ؛ (٣) وكذلك ثبت بتجارب معامل علم النفس .

ويجب البدء بتحديد الواقعة المتضمنة في الوثيقة ، قبل البحث في قيمتها ؛ فالتحليل إذن يسبق منطقياً النقد . فاذا حللنا فكرة « الوثيقة الأصلية » بوصفها فكرة ذات أهمية بالغة ، تبين لنا أنها خداعة :

(١) فهي وقتية زائلة ، فإن الوثيقة التي تعد أصلية طالما لم يكتشف المصدر للمدى أخذت عنه تنزل عن مرتبتها إذا اكتشف هذا المصدر (فقد اكتشف مصدر هربوكراتيون^(١) حينما اكتشف « دستور آثينية » لأرسطوطاليس ، وكشف عن اللوق دي بروي لما كشف عن دريه - بريزيه^(٢)) .

(١) فالريوس هاربوكراتيون Valerius Harpocraton : نحوي اسكندري ، قال البعض إنه كان مؤدياً لفيروس Verus صهر ماركس أورليوس (سنة ١٢١ م - سنة ١٨٠ م) ، وقال آخرون إنه كان معاصراً للإمبراطور يوليوس المرتد (سنة ٣٢٢ م - سنة ٣٦٣) . وقد ألف « معجماً يونانياً » بالألفاظ الواردة لدى خطباء آثينية الكبار العشرة . وقد طبعه ألدو^(١) في البندقية سنة ١٥٠٣ و سنة ١٥٢٧ ؛ وجرونوفوس في ليدن سنة ١٦٩٣ ؛ وبكر في برلين سنة ١٨٣٣ ، وندورف سنة ١٨٥٣ . ويتضمن ألفاظاً وأعلاماً وعبارات مأخوذة خصوصاً من الخطباء ، في ترتيب أبجدي مع ذكر شواهدا غالباً و شرح لبعض النقط المهمة . وبعض المواد مستمد من آثار غير خطافية ، وفي تفسيراته يقتبس أحياناً من الكتاب اليونانيين الكبار من هوميروس حتى العصر المتأخر . وفيه إلى جانب ذلك معلومات ثمينة في الآثار والدين والتشريع والاجتماع الخ .

(٢) أسرة دي بروي Broglie أسرة عريقة أصلها من كييري chieri في مقاطعة بيمونته بشمال إيطاليا ، ثم تجنست بالجنسية الفرنسية في القرن السابع عشر ، وكان منها كبار رجال الدولة في فرنسا ومنها اليوم عالمان مشهوران هما لوي دي بروي وأخوه موريس . واللوق دي بروي الأول هو الابن الثالث لكونت دي بروي (سنة ١٦٣٩ - سنة ١٧٢٧) وولد سنة ١٦٧١ وتوفي سنة ١٧٤٥ وبرز في الحروب تحت لواء لوكسمبور وكاتينا وبولير وقندوم وفيلار ، ولمع في معارك فليريس ودينان وفيرمبور . وكان سفيراً في لندن سنة ١٧٢٤ ، وأصبح بلقب ماريشال فرنسا سنة ١٧٣٤ . وابنه أيضاً كان دوقاً ولد سنة ١٧١٨ وتوفي سنة ١٨٠٤ : اشترك في عدة معارك في شمال فرنسا و ضد بروسيا وأصبح بلقب ماريشال سنة ١٧٥٩ . وفي سنة ١٧٨٩ - وهي سنة قيام الثورة الفرنسية - عينه لويس السادس عشر وزيراً للحربية وقائداً للقوات المسلحة من أجل القضاء على الثورة . ولكنه اضطر إلى الفرار وكاد يذبح في فردان ، وقاد جيش الأمراء سنة ١٧٩٢ وخدم روسيا سنة ١٧٩٧ حتى توفي سنة ١٨٠٤ .

(٢) ومن الصعب تحديدها بدقة لأن صفة المصدر المباشر تنتقل بتدرج متصل :
من مخطوط المؤلف الأصلي مارين بالصورة الشمسية ، والنسخة الكاملة ، والنسخة
الناقصة ، والمستخرج والاقتباس بين أقواس - حتى نصل إلى التلخيص البسيط .
(٣) وهي خصوصاً واسعة بغير حق ، كما في القضاء فكرة الشاهد المقبول
الشهادة ، لأنها تعترف ضمناً بأن جميع توكيدات الوثيقة (أو الشاهد) مصدرها
واحد وقيمتها واحدة . فليس لنا أن ننسب صفة « أصلية » إلى الوثيقة في جملتها ،
بل يجب إمكان انطباق هذه الصفة على كل خبر أو قول وارد فيها ، أعني صفة
أن الخبر أو القول واقعة شاهدها ورواها المؤلف بنفسه . وهكذا فإن المعرفة
المستخرجة من الوثيقة ترد إلى عملية كل علم وصني ، أعني « الملاحظة المباشرة » .
فالتحليل ، بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الوقائع ، يكشف عن أن المؤلف
ليس هو الذي شهدها بنفسه ، بل لاحظها مشاهد مجهول .

وأدع جانباً ما قلته في « المدخل إلى الدراسات التاريخية » عن موضوع
النقد الخارجي (معرفة كيفية استخدام الوثيقة) والنقد الباطن (تقرير الاحتياطات
التي يلزم اتخاذها بمناسبة كل واحدة من الوقائع الواردة في الوثيقة) - وعن النتيجة
السلبية للنقد - وعن دور البرهان بواسطة قياس النظر - وعن استخدام الأسئلة
(وأضيف إلى ما قلت أن « الفحص » المهيأ بواسطة مجموعة من الأسئلة المحددة
الثابتة هو المنهج العام لكل أنواع البحث في الوقائع) - وعن القاعدة التي تقتضي
البحث عما قصده المؤلف قبل استنتاج أي شيء منه - وعن ضرورة الاحتفاظ
بالتحليل منفصلاً عن كل تفسير .

والعملية الأخيرة التي تفضي إلى تقرير الواقعة بيقين علمي ، تم بمقارنة
الأقوال المختلفة عن واقعة واحدة ، وهي أقوال ترتب على عدة ملاحظات .
وتتضمنها إما عدة وثائق مختلفة أو أيضاً وثيقة واحدة فيها تأخذ صورة موجز
لعدد كبير من الملاحظات . فهذه الطريقة تنحل مشكلة اليقين المعقدة في حال
وجود وثيقة واحدة فريدة (مثل بطلميوس وأسماء الشعوب ، « وجدول المراتب »^(١) .

(١) جدول المراتب Notitia Dignitatum : اسم وثيقة تتألف من قسمين : قسم
خاص بأسماء الموظفين المدنيين والعسكريين في المنطقة الشرقية ، وقسم آخر يسجل نظائرهم في المنطقة الغربية
في الإمبراطورية الرومانية . وهذا الجدول مشهور ، لأنه الوحيد الباقي لنا من نوعه . وترتيبه كالآتي : =

واليقين المشروع نحصل عليه - كما في سائر العلوم - بالاتفاق بين كثير من الملاحظات « المستقلة » بعضها عن بعض . فهذا اليقين يقوم على أساس « مماثل » لحساب الاحتمالات . فعدد الأخطاء المختلفة الممكنة هو من الكثرة بحيث من يندر أن تتفق جملة أخطاء مصدرها مختلف اتفاقاً تاماً دقيقاً . فالأقوال إذا اتفقت ، فإن اتفاقها ليس من الممكن عملياً أن يقع إلا لأنها تتفق مع الحقيقة الواقعية . ومن المفهوم طبعاً أن النتيجة يجب أن تسبقها عملية خاصة لتعرف ما إذا كانت الأقوال مستقلة في مصادرها .

ج -

وبعد أن يقرر التحليل والنقد الوقائع الجزئية المنفصلة ، تبدأ سلسلة من العمليات لضمها بعضها إلى بعض وفقاً « للعلاقات » التي نكتشفها فيما بينها .
والوقائع ، - تبعاً لمكانتها - تبدو على نوعين من العلاقات المختلفة كل الاختلاف :

(١) . فبعضها يحدث بأن تتلاقى في نفس المكان والزمان وقائع تنتسب إلى سلاسل مستقلة تمام الاستقلال ، وهذه هي المصادفات والاتفاقات العارضة (التي وضع نظريتها كورنو (١) Cournot) .

(٢) والثانية تحدث من وقائع ندرك بينها وبينها ما يسمى في اللغة العامة بـ « صلة العلة بالمعلول » ، وفي اللغة العلمية نقول إن الواقعة السابقة « شرط » للتالية . ولا يمكن تطبيق منهج واحد للتصنيف على هذين النوعين . فوقائع

== ثبت موجز بكبار الموظفين ، ثم كل موظف كبير وأسماء من معه من الموظفين ؛ أما بالنسبة إلى العسكريين ، فيرد أسماء كل فيلق بحسب المنطقة التي يعسكر فيها . فورد فيها أسماء العمال (المديرين في الأقاليم الكبرى) ، ومحافظي روما والقسطنطينية ، ونوابهم vicarii ، والحكام الكبار والقواد الخ . وقد نشر هذا الجدول سيك سنة ١٨٧٦ O. Seeck : Notitia Dignitatum (١) . ا . كورنو (سنة ١٨٠١ - سنة ١٨٧٧) : فيلسوف فرنسي ، كان مفتشاً للتعليم العام ، ومن أوائل الذين قاموا بنقد الأفكار الأساسية في العلوم . قال باستحالة الوصول إلى معرفة جواهر الأشياء . وأول مؤلفاته هو : « عرض نظرية المصادفات والاحتمالات » (سنة ١٨٤٣) ، وفي هذه النظرية يقول إن اليقين في المعرفة يبدو بمثابة حد تتدرج بالنسبة إليه مختلف درجات الاحتمال . والمهم في مذهب كورنو أنه شبه الاحتمال بالنسبية : فالفرض يؤخذ به في الفزياء لأنه يسمح بربط الوقائع الملاحظة ربطاً عقلياً .

المصادفات يمكن فقط أن « ترصد » وترتب في وضعها الزماني والمكاني (التاريخي والجغرافي) ووفقاً للأشخاص . والوقائع التي تؤلف جزءاً من سلسلة من الأمور المتوقف بعضها على بعض يمكن أن تصنف وفقاً لنظام المقدمات والتوالي (ما يسمى باسم العلل والنتائج) . لكن هذه السلسلة لا متجانسة ، لأن جميع الوقائع الإنسانية (والاجتماعية) من نتاج نوعين من الظروف والشروط : (١) المادية ، (٢) والنفسية التي لا ندرك بينها أية نسبة ، بل هي تنتسب إلى نوعين من الحقائق الواقعية لا يمكن رده إلى غيره . فبين الفعل المادي وشرطه النفسي ، المسمى مجازاً باسم «الباعث» له (فكرة ، عاطفة ، دافع) ، لا توجد رابطة ثابتة . وكذلك لا توجد أيضاً رابطة بين الحقيقة الواقعية والفكرة التي يكونها الإنسان عنها ؛ وليست الحقيقة الواقعية ، بل الفكرة ، صادقة كانت أو كاذبة ، هي شرط الفعل . فليس وجود الجحيم أو قوة السحر ، بل الاعتقاد في وجود الجحيم وفي السحرة هو الذي أحدث ألوان التوبة والقضايا . وليست رسالة محمد الحقيقية ، ولا إيمانه برسالته ، بل إيمان المسلمين هو الذي ولد الجهاد والامبراطورية العربية . والغالبية العظمى من الأفعال الإنسانية تنشأ عن نظرات خاطئة في الحقيقة الواقعية . (والأمر كذلك بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ، وفكرة القيمة ، والمذاهب السياسية) .

والحق أن الموضوع الحقيقي للتاريخ هو سلسلة النتائج الواقعية التي أحدثتها الأفعال ، والأفعال هي التي ترصد ؛ لكن لا يمكن فهمها إلا بمعرفة « كيفية » حدوثها ؛ بل من الصعب أيضاً رواية فعل دون بيان دواعيه . فلا يمكن أن نحكي كيف اكتشف كولمبس أمريكا إلا ببيان خطئه في معرفة الأبعاد الحقيقية للأرض . وكل الوقائع التي تدرس بسبب نتائجها ، شأنها شأن عوارض المصادفات لا يمكن أن تصنف إلا في إطار جغرافي وتاريخي ، وهي تؤلف مادة التاريخ العام .

وتمت وسيلة ثانية لجمع الوقائع وذلك بضم كل الكائنات الإنسانية التي يوجد بينها « نوع » من العلاقة المتحددة الطبيعية ، وتكوين جماعة منها تمايزة يطلق عليها اسم . فيستبين لنا :

(١) الجماعة القائمة على الأصلاب الحقيقية أو المزعومة أو المصنوعة ،
وعلى الحياة المادية المشتركة (الأسرة ، القبيلة ، الفصيلة) ؛

(٢) الجماعة القائمة على علاقات الحوار والدفاع والمساعدة المتبادلة
(القرية ، الناحية) ؛

(٣) الجماعة القائمة على علاقات التشابه في عادات الحياة والنفسية ،
واللغة ، والدين ، والعادات (الشعب بالمعنى العنصرى ويخلط بينه وبين
العنصر بالمعنى الأنثروبولوجى خلطاً لا مبرر له) ؛

(٤) الجماعة القائمة على طاعة سلطة واحدة تقيمها القوة وخصوصاً
التهديد باستخدام القوة ، والحرب ، والعدالة ، والشرطة .

وهذه الأنواع المختلفة للجماعات يجب أن توزع على مدى امتداد الأمكنة
وتوالى الأزمنة (بالقدر المحدود الذى تسمح به الوثائق) .

والعملية الثالثة هي جمع الوقائع تبعاً لعلاقة المشابهة ، وذلك بضم الوقائع
التي تنتسب إلى « نوع » واحد من النشاط الإنساني ، وكل منها يتحقق بالمزج
بين فعل وواقعة نفسية - اللغة ، الاعتقادات ، الدين ، العرف ، طرائق المعيشة
(في الغذاء ، اللبس ، المسكن) ، الإنتاج ، التجارة ، القانون الخاص ،
النظام السياسى . وتلك مادة التواريخ « الخاصة » . وفيها يدخل جانب من
التجريد ، مما يغرى بمعالجتها كالعلوم العامة وبالبحث فيها عن « قوانين » ،
إذ ترتبط بالواقع الوصفى لأنها محددة في مكان (جماعة) وزمان . وأيسر الأنواع
اللغة ، اللغة « الواقعية » ، التي « يتخاطب » بها ؛ وميزتها أولاً أنها أبسط مزيج
من هاتين الحقيقتين وهما : الحركات الفعلية للسان ، والعلاقة العقلية ؛ وميزة
ثانية هي أنها تزودنا بمئات الآلاف (بل الملايين) من الأفعال المتشابهة كل
التشابه . وهذا يسمح بتقرير أرساد « أكثر وقوعاً » وإن لم تسمح تماماً بوضع
قوانين « إحصائية » قائمة على « قانون العدد الأكبر » - وذلك فيما يتصل
باستخدام لفظ أو صورة في نظم الكلام أو هيئة صوتية . أجل ! نحن لا نستطيع
أن نعين بالدقة نسبة الذين يقولون « يتحدث الناس عن . . . » ، أو « من الناحية

الغالبية « ، أو « أتذكر ذلك » ، لكننا نستطيع أن نعرف أن هذه الصور أقل وقوعاً – وطبعاً في وقت معين حقيقي ، لأنها يمكن أن تصبح أكثر وقوعاً .

وهذه التجربة على اللغة تسمح بتصوير الطبيعة الحقيقية في سائر أنواع النشاط ، للثبات المستتر تحت الأسماء الوهمية للقاعدة والقانون والثبات ، وما هو الأكثر وقوعاً كثرة متفاوتة بل معرضة للزوال ، كما يدل على ذلك حال كلمة قانون ومرسمة حينها يصبح غير صالح للاستعمال ، أعني خارجاً عن الأحوال العادية للتفكير والعمل .

(١) وكل معرفة بواقعة ماضية تبدو – مادامت وصلت عن طريق ملاحظة غير مباشرة – على صورة جزئية منعزلة في مدى المكان والزمان ، ولا يمكن استخدامها في واحد من التجميعات (بأنواعها الثلاثة) إلا باتمامها على نحو يجعلها تمتد إلى مساحة جغرافية ، أو جماعة إنسانية ، أو حقبة تاريخية .

(٢) وكل واقعة إنسانية تلاحظ من الخارج تحتاج أن تتم بأحوال نفسية ضرورية للفعل .

(٣) ومعرفة العلاقات الإنسانية تند عن الملاحظة المباشرة ، إنها « تركيب » من تأليف العقل ، عقلنا نحن .

فتمت إذن ثلاثة أنواع من المعارف لا يمكن تحصيلها إلا بعملية جديدة . وهذه العملية – وهي مشتركة بين الثلاثة – هي البرهان بواسطة قياس النظر ويقوم على تشابه الأفعال و « أحوال النفس » (العواطف ، الأفكار ، العزائم) ، ومختلف العلاقات الاجتماعية بين الناس في الماضي ونظائرها في ظواهر الحاضر ، ونحن نعرفها بتجربتنا الشخصية عن السلوك المعتاد للناس و « أحوال نفسنا » الخاصة . وهي عملية متفاوتة القيمة جداً ، تعادل استقراءً علمياً للوقائع البيولوجية (فالوثائق عن الشعوب المتبربرة لا تكاد تتحدث أبداً عن النساء أو الأطفال ، ورغم ذلك فنحن موقنون بأنهم أنجبوا وتناسلوا على نحو إنجاب وتناسل المعاصرين لنا) – وهي فرض تخميني محض بمناسبة العواطف والأفكار ، بل وسلوك الأفراد . فهذا ميدان السير التي عمل فيها الخيال . ذلك أن قيمة برهان يتصل بالماضي تتوقف على قيمة أساسه مأخوذاً في معرفة الحاضر . فيجب له إذن أن

يؤسس على علم تجريبي بنواميس السلوك الإنساني ؛ وهذا العلم لم ينشأ ويكتمل ؛
وعلم النفس العام لا يمكن أبداً أن يقوم مقامه . والواقع أن كل مؤرخ يفكر
بحسب أفكار نادرة غامضة ، وفي العادة خطأ ، اصطنعها لنفسه أو تلقاها من
التقاليد الموروثة .

بل إن طريقة العقل الإنساني في تصور طبيعة العلاقات (بأنواعها الثلاثة)
تصوراً تلقائياً تقوم على وهم : فالعلاقة ينظر إليها على أنها حالة ثابتة مستمرة ،
يقيمها تماسك يعبر عنه على هيئة مجازية بأنه « رباط » بين الوقائع . وهذا الوهم
شبيه بتصور المادة المتصلة (أو الجوهر) (على وفق الإدراك العام) التي أبدلت
بها العلم المعاصر لتصور خلاء انتشرت فيه عناصر تفصلها أبعاد كبيرة . أما إذا
فحصنا الحقيقة الواقعية في سلسلة اللحظات المتتالية — وهذا هو الدور الخاص
الذي يقوم به التاريخ — فاننا نشاهد أن واقع الوقائع الإنسانية (والاجتماعية)
كلها يتألف من سلسلة « منفصلة » من الأفعال المتشابهة جداً ، ولكنها مع ذلك
ممايزة الواحد من الآخر (ونضرب لهذا مثلاً بالأصوات المتتالية للكلام ،
والحركات المتتالية في الحياة العادية) . والمادة الجاهدة هي وحدها الثابتة ،
على الأقل في المستوى الإنساني . ولكن الحياة كلها تقتضي حركات وتغيرات
في كل لحظة . وضعف العقل الإنساني هو الذي حملنا على الظن بأن هذا
« عين » ذلك وهو ليس إلا مجرد « شبيه » به . وعلى أن نتصور أنه « حالة وحيدة
ثابتة ما ليس إلا سلسلة من الوقائع المتشابهة .

وتمت سبب آخر خطير لحدوث الخلط ، يرجع إلى أن اللغة لا تقدم
أسماء لتمييز الأشياء بطريق مباشر اللهم إلا للأشياء الميسرة للحواس . أما الوقائع
التي لا تدرك إلا بالشعور (النفسى) ، والعلاقات التي هي تركيبات للعقل —
كل هذه لا يمكن أن يعبر عنها إلا بمجاز . والكثير منها قد دخل في اللغة الجارية
وصار من القدم بحيث لا تذكر أصولها ، وأصبحت بمعزل عن الإضرار
والإيذاء ؛ فلم يعد المرء يفكر في المعنى المجازي لقولنا : *influer sur* (يؤثر على)
أو « يتوقف على » *dépendre de* . ولكن المجازات التي لا نزال نشعر بأنها
مقارنة لما كانت قائمة على تشابه سطحي جداً يقتصر عادة على لمحة وحيدة ،

يمكن أن تزيّف الحقيقة الواقعية باغرائها على مد المشابهة إلى ملامح أخرى .
وأشدّ المحازات خطورة هي تلك التي تتعلق بمجموع من العلاقات المضمّنة
تحت اسم موضوع مادي : حجري ، بناء (تركيب اجتماعي) أو كائن حي
(الجماعة إذا شئت بكائن عضوي) . فعن هذا الطريق تتولد كائنات خيالية ،
يضيف إليها المرء أفعالا وأفكاراً ودوراً . والأمر كذلك في سلاسل الوقائع منظوراً
إليها كأنها حادث (حركة الإصلاح الديني في أوروبا الحديثة ، الثورة الفرنسية) ،
أو سلسلة من الأشخاص (الملكية ، والكنيسة ، والدولة) . بل يذهب الناس
إلى حد أن يقولوا : شاءت المصادفة .

وأبعد أقسام التاريخ عن إثارة الجدل والتشكيك هو توالي « نتائج » الأفعال
بالمعنى الواسع للكلمة ، وهي على كل حال غالباً ما تكون مختلفة كل الاختلاف
عن مقاصد فاعليها .

إن هذه النتائج هي التي تغير أحوال الحياة ، فتقضي على القديمة وتنشئ
الجديدة . والمظاهر الخارجية للعواطف والأفكار التي تؤلف مادة التواريخ الخاصة
هي جزء من هذه النتائج . وهذا هو مجال التفاهم بين المؤرخين . لكن لا مندوحة
عن الاختلاف : (أولاً) حول جميع وقائع الحياة الباطنة ، لأننا نجهل قوانينها ؛
و (ثانياً) حول كثرة وقوع الأفعال (وتبعاً لهذا الاتفاق مع القواعد وألوان
العرف) وحول نصيب كل فعل في نتيجة ما من النتائج . ذلك أن التاريخ
لا يملك أية عملية لقياس كثرة وقوع ظاهرة وأهميتها ؛ والإحصاءات والمتوسطات
الحسابية ليست مقاييس .

وهاأنذا أدع القلم فأمسكه عن الاستمرار في هذا الموجز الذي قد أصبح
مسهباً ، وقد أحرّ تحريره لإرسال رسالتي هذه إليك بغير موجب . ومع ذلك
فإن شاقك في وسعي أن أتمه ، فيما يتصل بالبند (٣) : الاحتياطات ضد المحاز ،
رد كل علاقة إلى أفعال . . . (كلمة غير مقروءة) . - الفعل المتبادل بين أنواع
النشاط المختلفة ، التضامن (الارتباط Zusammenhang) . - وهم زعم
القدرة على النفوذ إلى المجموع (Gesammt) عن طريق العيان المباشر ،
فإن المجموع لا يمكن أن يعرف قبل جمع الأجزاء ، وهذه لا بد أن تكون قد
درست من قبل .

عبد الرحمن بروي